﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ وَٱلْمِيزَانَ ۗ وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّ ٱلسَّاعَةَ قَرِيبٌ ﴿١٧﴾﴾ [الشورى: 17]

❁ مُناسَبَةُ الآيَةِ لِما قبلَها:

بَيانُ ما تُعْرَفُ بِهِ صِحَّةُ الحُجَجِ أو زَيْفُها

لَمّا جزَم اللّهُ سُبْحانه بِما توعَّدهم به مِنَ الغَضَب والعذابِ الشَّديد بعدَ حُكْمِه على حُجَّتهم بالدُّحوض، ولا يَجْزِمُ بالشَّيء إلّا مَن كان نافِذَ الأمر ومحيطَ الحُكم؛ أشارَ إلى أنَّه سُبْحانَه كذلكَ، موضِّحًا ما يُعرف به ثباتُ الحُجَجِ أو دُحوضها المُسْتَلْزِم غضبَ اللّهِ ﷻ الّذي يعقُبُه العذابُ الشَّديد، فقال تَعالى: ﴿ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ وَٱلْمِيزَانَ ۗ﴾[1].

❁ شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿وَٱلْمِيزَانَ ۗ﴾: (وزن) تَدورُ تَصْريفاتُه على مَعْنى التَّعديل والاستِقامَة[2]، ويُقال للآلة الَّتي توزَنُ بها الأشياءُ: ميزانٌ، ونَظَرَتِ العربُ إلى التَّعادل عندَ الوَزْنِ، فأطلقوا الميزانَ، وأرادوا به: العَدْلَ[3]، ولذا قال جماعةٌ مِنَ السَّلف: سُمّي العدلُ ميزانًا؛ لأنَّ الميزانَ آلةٌ للإنصافِ والتَّسْويَة[4]، والميزانُ في قولِ الله تعالى: ﴿ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ وَٱلْمِيزَانَ ۗ﴾ هو العدلُ[5].

2) ﴿يُدْرِيكَ﴾: (دري) تدلُّ اشتِقاقاتُه على تَغَلْغُل الشَّيء بدِقَّة وقوَّة خلالَ جِرْمٍ كثيفٍ، فيَصِل إلى عُمقه، ومنه: المُداراةُ، وهي: المُلايَنة وحُسْن الخُلُق، ويكون ذلك بالتَّغاضي عن سوءِ الفِعْلِ اتِّقاءً

(1) البقاعي، نظم الدرر: 17/ 280.
(2) ابن فارس، مقاييس اللغة: (وزن).
(3) محمد جبل، المعجم الاشتقاقي المؤصل: (وزن).
(4) ابن عادل، اللباب في علوم الكتاب: 17/ 181.
(5) النسفي، مدارك التنزيل: 3/ 250.

للشَّرِّ، فهو تَستُّرٌ؛ ليَعْلم المُداري باطنَ مَن يُداريه، ومنهُ الدِّراية، وهي: علمٌ فيهِ نفاذٌ إلى ما خفيَ[1]، وقولهُ تَعالى: ﴿وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّ ٱلسَّاعَةَ قَرِيبٌ﴾، أي: أيُّ شيء يجعلُك عالمًا بها[2].

3) ﴿قَرِيبٌ﴾: (قرب) تَدور تَصْريفاته على ضِدِّ البُعْدِ[3]، فالقريبُ عكسُ البَعيدِ[4]، ويدخُلُ في ذلكَ الزَّمان والمَكان وغيرُهما، والقربُ المَذْكورُ في قولِ اللهِ تَعالى: ﴿وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّ ٱلسَّاعَةَ قَرِيبٌ﴾ قُرْبُ الزَّمانِ.

❁ المَعْنى الإجْماليُّ:

التَّنْبيهُ عَلى قُرْبِ الحِسابِ

يُبَيِّن اللهُ تعالى أنَّه أنْزَل الكِتابَ بالحقِّ والميزانِ؛ ليَحْكُم بينَ النّاس بالعَدْلِ، ثُمَّ يُخاطِب نبيَّه محمَّدًا ﷺ - أو كُلَّ مَن يَصِحُّ خِطابُهُ - مُشيرًا إلى أنَّ القيامَةَ قَد تَكون أقربَ ممّا يظنّون، وأنَّ العِلْمَ بها على وجهِ الحقيقَةِ عندَ اللهِ تَعالى وحدَهُ[5].

❁ الإيضاحُ اللُّغَويُّ والبَلاغيُّ:

عِلَّةُ فَصْلِ هَذِهِ الآيَةِ عَمّا قَبْلَها:

مِـن ضُـروبِ البَيانِ إقامَةُ الدَّليلِ عَلى المُبَيَّنِ

فُصِل قولُ اللهِ تَعالى: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ وَٱلْمِيزَانَ﴾ عنِ الآيَةِ قبلَها: ﴿وَٱلَّذِينَ يُحَآجُّونَ فِى ٱللَّهِ﴾؛ لوُقوعِها موقِعَ البَيان مِنْها؛ إذِ الثّانيَةُ دليلٌ لِما قَبْلَها، والدَّليل مِن ضروب البيانِ[6]، فكان بهذا بينَ الجُمْلَتين كمالُ الاتِّصال.

سِرُّ الإظْهارِ في مَقامِ الإضمارِ:

التَّنْبيهُ عَلى عَظَمَةِ الرَّبِّ ﷻ

في قولِ اللهِ سُبْحانَه: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ وَٱلْمِيزَانَ﴾

(1) محمد جبل، المعجم الاشتقاقي المؤصل: (درى).
(2) القِنَّوجي، فتح البيان: 12/ 290.
(3) ابن فارس، مقاييس اللغة: (قرب).
(4) الأزهري، تهذيب اللغة: (قرب).
(5) نخبة من أساتذة التفسير، التَّفسير الميسّر، ص: 471.
(6) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 25/ 67.

إظهارٌ في مَقامِ الإضمار؛ لأنَّ مُقْتَضى الظّاهِر أن يَرِدَ في النَّظم القرآنيّ: (هو الَّذي أنزل الكتابَ)؛ لتَقَدُّم ذِكْرِ اسم الله تَعالى ﴿ٱللَّهُ﴾ و(الرَّبِّ) في قولِه ﷻ: ﴿وَٱلَّذِينَ يُحَآجُّونَ فِي ٱللَّهِ مِنۢ بَعۡدِ مَا ٱسۡتُجِيبَ لَهُۥ حُجَّتُهُمۡ دَاحِضَةٌ عِندَ رَبِّهِمۡ﴾، ونكتَةُ الإظهار التَّنبيه على عظمَةِ المُخْبَر عنه، وهو اللهُ ﷻ[1]، ولذا اختير التَّعبيرُ عنه بالاسمِ الأحسَنِ (الله) الجامعِ لصِفات الكمالِ والجلال والجمالِ.

سِرُّ التَّعْبيرِ بِالاسمِ المَوصولِ وصِلَتِهِ:

الإشارَةُ ابتِداءً إلى وجْهِ بِناءِ الخَبَرِ

جاء الإخبارُ عن الله تعالى بالاسم المَوْصول وصِلَتِه في قوله: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِيٓ أَنزَلَ ٱلۡكِتَٰبَ بِٱلۡحَقِّ وَٱلۡمِيزَانَۗ﴾؛ لِما في المَوصوليَّة مِنَ الإشارَة إلى وجْهِ بِناء الخبَر المَذْكور بعدُ، وأنَّه مِن جنسِ الحقِّ والعَدْل، فالتَّعبير بالاسم الموصول هنا أفاد معنى التَّعظيم؛ إذ إنَّ التَّعريف به يأتي على مرحلتَيْن: الاسم الموصول، وهو مبهمٌ، ثمَّ جملة صلة الموصول الَّتي تزيل إبهامه.

بلاغةُ القصر بتعريف الطَّرفيْن:

في قوله: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِيٓ أَنزَلَ ٱلۡكِتَٰبَ﴾ تعريفٌ لطرفي الإسناد، وقد أفاد هذا التَّعريف: القصر الحقيقيَّ، فإنزال الكتاب بالحقِّ والميزان هو من شأنه تعالى لا من شأن غيره.

سِرُّ التَّعْبيرِ بِالإنزالِ دونَ التَّنْزيلِ:

الإنـزالُ دَفْعيٌّ، والـتَّـنْـزيـلُ تَدْريجيٌّ

عُبِّر بالإنزالِ ﴿أَنزَلَ﴾ دون التَّنْزيل (نَزَّل) في قولِ الله تَعالى: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِيٓ أَنزَلَ ٱلۡكِتَٰبَ بِٱلۡحَقِّ وَٱلۡمِيزَانَۗ﴾؛ للإشارة إلى أنَّ المُراد جملةُ الكتابِ الَّذي لا مَطْعَن في شيءٍ مِنْهُ؛ لأنَّ الإنزالَ دفعيٌّ بخلافِ التَّنزيل، فإنَّه تدريجيٌّ[2].

واستعمالُ الإنزالِ يَجْعَلُ لفظَ ﴿ٱلۡكِتَٰبَ﴾ بعدُ يَصِحُّ حَمْلُهُ على

(1) البقاعي، نظم الدرر: 17/ 280.
(2) الجرجانيّ، التّعريفات، ص: 68، والزّبيديّ، تاج العروس: (نزل).

جميعِ الكُتُبِ؛ إذِ الكُتُب كلُّها نزلَت جملةً واحدةً، ومِن ذلك القرآنُ الكريم، فإنَّ له نُزولَيْن: نزولًا دَفْعيًّا إلى السَّماء الدُّنيا، ونزولًا تدريجيًّا بحسب الوقائعِ والحوادِث[1]، بخلافِ ما لو جاءَ التَّعبير بالتَّنزيل، فإنَّ ذلك يُخَصِّص دِلالة الكتابِ بالقرآنِ وحدَه؛ إذ هو المختصُّ بنُزوله تدريجيًّا، ولا يدخُلُ فيهِ شيءٌ مِنَ الكُتُبِ السّابقة.

دلالَةُ (أل) في ﴿ٱلۡكِتَٰبَ﴾:

انـدِراجُ جَميعِ الكُتُبِ الإلَهيَّةِ في لَفْظِ (الكِتاب)

(أل) في ﴿ٱلۡكِتَٰبَ﴾ من قول الله تعالى: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِيٓ أَنزَلَ ٱلۡكِتَٰبَ بِٱلۡحَقِّ وَٱلۡمِيزَانَۗ﴾ للاستغراق[2]، فتشمل جميعَ الكُتُبِ الإلهيَّة المنزَّلة على الأنبياءِ، بقَرينَة قولِ الله سُبْحانَه قبلُ: ﴿وَقُلۡ ءَامَنتُ بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ مِن كِتَٰبٖۖ﴾[3] [الشورى: 15].

ويجوزُ أن تكونَ (أل) للعَهْدِ العِلْميِّ (الذهني)، والمُرادُ بهِ القُرآن الكريمُ خاصَّة[4].

والأوَّل أعمُّ؛ لاندراج الثّاني فيهِ، فيكون المُرادُ بالكتابِ: القرآنَ وسائرَ الكُتُب الإلهيَّة المُنَزَّلة[5].

دلالَةُ الباءِ و(أل) في ﴿بِٱلۡحَقِّ﴾:

نُـزولُ الكِتـابِ مُصاحَبًا بِالحَقِّ والصِّدْقِ

الباءُ في ﴿بِٱلۡحَقِّ﴾ من قولِ الله تعالى: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِيٓ أَنزَلَ ٱلۡكِتَٰبَ بِٱلۡحَقِّ وَٱلۡمِيزَانَۗ﴾ للمُلابَسَة والمُصاحَبَة، أي: إنَّ اللهَ سُبْحانَه أنزلَ الكِتابَ مُتَلَبِّسًا بالحقِّ في أحكامهِ وأخبارِهِ مُصاحِبًا له، مُقْتَرِنًا به، بعيدًا مِنَ الباطِل[6]، وتعريف الحقِّ للاستغراق؛ ليعمَّ كلَّ حقٍّ أوجده الله ﷻ.

(1) المقدسيّ، المرشد الوجيز، ص: 17، والسّيوطيّ، الإتقان: 1/ 146.
(2) ابن عطية، المحرر الوجيز: 5/ 31، والزمخشري، الكشاف: 4/ 217، وأبو حيان، البحر المحيط: 9/ 330، وطنطاوي، التفسير الوسيط: 13/ 25.
(3) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 25/ 68.
(4) القِنَّوجي، فتح البيان: 12/ 290.
(5) القرطبي، الجامع لأحكام القرآن: 16/ 15.
(6) الزمخشري، الكشاف: 4/ 217، والقاسمي، محاسن التأويل: 8/ 361، وابن عاشور، التحرير والتنوير: 25/ 68.

دلالَةُ العَطْفِ في قَوْلِهِ: ﴿وَٱلْمِيزَانَۗ﴾:

إنْـزالُ الكِتـابِ والميزانِ بِالحَقِّ

الواوُ في ﴿وَٱلْمِيزَانَۗ﴾ من قول الله ﷻ: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ ٱلْكِتَـٰبَ بِٱلْحَقِّ وَٱلْمِيزَانَۗ﴾ عاطفةٌ ما بعدَها عَلى كلمةِ ﴿ٱلْكِتَـٰبَ﴾، والتَّقدير: أنزل الكتاب بالحقِّ، وأنزل الميزانَ بالحقِّ[1]، ويجوزُ أن يكون (الميزان) معطوفًا على محلِّ ﴿بِٱلْحَقِّ﴾؛ إذِ الجارُّ والمجرور متعلّقان بمحذوف حال[2].

بَلاغَةُ المَجازِ في التَّعْبيرِ بِلَفْظِ (الميزانِ):

المـيـزانُ رَمْـزٌ لِـلـعَـدْلِ وآلَـةٌ لِلإنْصافِ

(الميزان) مِن قول الله سُبْحانَه: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ ٱلْكِتَـٰبَ بِٱلْحَقِّ وَٱلْمِيزَانَۗ﴾، هو العدلُ في قولِ أكثَر أهلِ التَّفسير، وسُمّي العدلُ ميزانًا؛ لأنَّ الميزان آلةُ الإنصافِ والتَّسوية بين الخلق، فيكون لفظُ الميزانِ مُتَجَوَّزًا به عن العدلِ، مجازًا مرسلًا بعلاقةِ السَّببيَّة؛ إذ أُطْلِق السَّبب، وأريدُ المُسَبَّب[3]، ويجوز أن تكون العلاقةُ آليَّةً، مِن إطلاق اسم الآلةِ وإرادة أثرِها.

وذهب بعضُ أهل التَّفسير إلى أنَّ الميزان هو الدّين والشَّرع، بقرينةِ ذِكر الإنزالِ؛ فإنَّ الدّين هو المُنَزَّل، والدّين يدعو إلى الإنصافِ في الجِدال، والعدلُ في إعطاءِ الحُقوق[4]، فيكون لفظُ الميزانِ مُسْتَعارًا للشَّرع؛ تشبيهًا له بالميزان العُرْفيِّ، مِن جهة أنَّه توزن به الحقوقُ الواجبُ أداؤُها، سواءٌ أكانت حقوقًا للّه تعالى أم حقوقًا للعبادِ[5].

نكتة تقديم الحقِّ على الميزان:

عـطْـفُ الخـاصِّ عـلـى الـعـامِّ لِلإشادة به

قدَّمت الآية الكريمة لفظة الحقِّ على الميزان؛ لأنَّ الحقَّ هو

(1) ابن جرير، جامع البيان: 21/ 520، والنحاس، إعراب القرآن: 4/ 53، وصافي، الجدول: 25/ 30، والدعاس، إعراب القرآن: 3/ 185.
(2) درويش، إعراب القرآن وبيانه: 9/ 24.
(3) القِنَّوجي، فتح البيان: 12/ 290.
(4) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 25/ 68.
(5) الهرري، تفسير حدائق الروح والريحان: 26/ 69.

الثّابت الَّذي لا يتغيَّر، وهو وصفٌ وصف اللّه تعالى به نفسه، وما الميزان والعدل إلّا فرعُ هذا الحقِّ وثمرته، فلولا الحقُّ؛ لما كان العدل، ولا أُقيم الميزان.

دلالَةُ الواوِ في قَوْلِهِ: ﴿وَمَا يُدْرِيكَ﴾:

لا مَفَرَّ لِلعِبادِ عَن لِقاءِ الجَزاءِ يَومَ القيامَةِ

الواوُ في ﴿وَمَا﴾ من قولِ اللّهِ تَعالى: ﴿وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّ ٱلسَّاعَةَ قَرِيبٌ﴾ عاطفَةٌ الجملةَ بعدَها عَلى جُمْلَةِ: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ وَٱلْمِيزَانَ﴾، ولا إشكالَ في عَطف الإنشاء على الخبرِ؛ إذا آل أحدهما إلى معنى الآخر؛ لأنَّ الصّواب جوازُه، والقرآنُ طافِح به[1]، والاستفهام هنا إنشاءٌ لفظًا، خبرٌ معنًى، والمناسبَةُ بينَ الجُمْلَتَين المُتقدِّمتين هو أنَّ قولهُ سُبحانَهُ: ﴿وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّ ٱلسَّاعَةَ قَرِيبٌ﴾ يُؤْذِنُ بمُقَدَّر قَبْلَهُ يقتضيهِ المعنى، والتَّقدير: فجعلَ اللّه ﷻ الجزاءَ للسّائرين على الحقِّ والنّاكبين عَنْهُ يومَ قيام السّاعَةِ، فَلا مفرَّ للعِباد عن لقاءِ الجَزاء، وما يُدْريكَ لعلَّ السّاعة قَريبٌ[2].

دلالَةُ الاستِفهامِ في قَوْلِهِ: ﴿وَمَا يُدْرِيكَ﴾:

إثـارَةُ الـفِـكْـرِ في أمْرِ السّاعَةِ

(ما) في قول اللّه تعالى: ﴿وَمَا يُدْرِيكَ﴾ استفهاميَّةٌ، والمَعْنى: أيُّ شيءٍ يَجْعَلُك داريًا بها عالمًا بوَقْتِها[3]، والاستفهامُ خارِجٌ عن أصلِه من إرادَةِ طلَبِ العِلْم بشيءٍ لَم يكُنْ معلومًا من قبلُ، والمُراد به التَّنبيه والتَّهيئة[4]؛ إذ فيه لفتُ الانتباهِ إلى اقترابِ السّاعة، وإثارةِ التَّفكير في شأنِها، وفيه أيضًا إشعارُ النَّفس البشريَّة بقُصورِها في العلمِ والمَعْرِفَة أمامَ عِلْمِ اللّه تعالى المُطْلَق.

سِرُّ التَّعْبيرِ بِقَوْلِهِ: ﴿يُدْرِيكَ﴾ دونَ (يُعْلِمُكَ):

الإدْراكُ عِـلْـمٌ فـيـهِ نَـفـاذٌ إلى الخَفيّاتِ

جاء التَّعبير بـ ﴿يُدْرِيكَ﴾ دون (يُعْلِمُكَ) من قولِ اللّه تَعالى:

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 29/ 210.
(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 25/ 68.
(3) القِنَّوجي، فتح البيان: 12/ 290.
(4) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 25/ 68.

﴿وَمَا يُدۡرِيكَ لَعَلَّ ٱلسَّاعَةَ قَرِيبٞ﴾؛ لِما في لَفْظِ الإدراك مِن عُمْقٍ في المَعنى؛ إذ هو علمٌ فيهِ نفاذٌ إلى ما خفيَ[1]، وهو الأنسب لذِكْرِ يوم القيامةِ؛ إذْ هي غيبٌ محجوبٌ عنِ العبادِ.

دلالَةُ التَّعْبيرِ بِالفِعْلِ المُضارِعِ ﴿يُدۡرِيكَ﴾:

جاء التَّعبير بالفعلِ المُضارع ﴿يُدۡرِيكَ﴾ مِن قول اللّه ﷻ: ﴿وَمَا يُدۡرِيكَ لَعَلَّ ٱلسَّاعَةَ قَرِيبٞ﴾، وفيه دلالة على الاستمرارِ والدَّوام، والمَقْصود استمرارُ التَّنبيه إلى عَجْزِ الإنْسان عن إدراكِ الغَيْب، وعندما يعبِّر القرآن الكريم بلفظ الدّراية بالفعل المضارع؛ فإنَّه لا يبيِّن المقصود بعدها، كما يفعل بموعد السّاعة، بينما عندما يعبِّر عنها بالفعل الماضي، فإنَّه يبيِّنها، كما في الحاقَّة والقارعة والقدر وغيرها.

اختِصاصُ عِلْمِ الغَيْبِ باللهِ تَعالى

دلالَةُ كافِ الخِطابِ في ﴿يُدۡرِيكَ﴾:

كافُ الخطابِ في قول اللّه تَعالى: ﴿وَمَا يُدۡرِيكَ﴾ للنَّبيِّ ﷺ، والمَعْنى: وما يُدْريكَ يا أكملَ الخلقِ بحالِ القيامة[2]؛ إذِ القُرآن الكريم أوحيَ إليهِ ﷺ، ثُمَّ أُمِرَ بعدُ بتبليغِه.

نَفْيُ عِلْمِ السّاعَةِ عَن أفضَلِ الخَلْقِ دَليلٌ عَلى انتِفائِهِ عَن غَيرِهِ مِن بابِ الأوْلَوِيَّةِ

ويَحْتَمِل أن يكونَ ضميرُ الخِطاب خارجًا عَن أصلهِ مِن إرادة مُعَيَّنٍ، قصدًا إلى العمومِ، أي: وما يُدريك أيُّها المُخاطَب[3].

ولا تنافيَ بينَ المَعنيين؛ لأنَّه إذا نُفي علمُ السّاعة عن أكملِ الخَلْقِ وأشرَفِهم، وهو النَّبيُّ ﷺ، فنَفْيُ العلم بِها عن غيره من بابٍ أولى وأحرى، ولا ريبَ أنَّ الثّانيَ أعمُّ وأشملُ.

معنى (أل) في ﴿ٱلسَّاعَةَ﴾:

تعريفُ السّاعة هنا للعهد الذِّهنيِّ، والمراد بها وقت قيام السّاعة.

(1) محمد جبل، المعجم الاشتقاقي المؤصل: (درى).
(2) البقاعي، نظم الدرر: 17/ 280، والهرري، تفسير حدائق الروح والريحان: 26/ 70.
(3) أبو حيان، البحر المحيط: 9/ 330، وابن عاشور، التحرير والتنوير: 25/ 68.

دلالَةُ التَّعْبيرِ بِالسّاعَةِ:

الإيـمـاءُ إلى المُفاجَأةِ في حُلولِ القيامَةِ

عُبِّرَ عن يوم القيامةِ بالسّاعة في قول الله تَعالى: ﴿وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّ ٱلسَّاعَةَ قَرِيبٌ﴾؛ للإيماءِ إلى المُفاجأةِ في حلولِها[1]، وأنَّها تأتي بغتةً، كما قال الله سُبحانه: ﴿يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلسَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسَىٰهَا ۖ قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِندَ رَبِّى ۖ لَا يُجَلِّيهَا لِوَقْتِهَآ إِلَّا هُوَ ۚ ثَقُلَتْ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ لَا تَأْتِيكُمْ إِلَّا بَغْتَةً ۗ﴾ [الأعراف: 187]، ولفظ ﴿ٱلسَّاعَةَ﴾ يُؤَدّي هذه الوظيفةَ الدَّلاليَّة.

دلالَةُ التَّعْبيرِ بِقَوْلِهِ: ﴿قَرِيبٌ﴾ دونَ (آتيَة):

قُـرْبُ السّاعَةِ مُشْعِرٌ بِالخَوْفِ مِنْها والاستِعدادِ لَها

جاء التَّعبيرُ بالقُرب في قول الله سُبْحانه: ﴿وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّ ٱلسَّاعَةَ قَرِيبٌ﴾ دون الإتيانِ، فلَم يَرِد في النَّظم القرآنيِّ: (لعلَّ السّاعة آتية)؛ لِما في التَّعبير بالقُرب مِن إثارة الشُّعور بالخَوْفِ مِنْها والاستعدادِ لَها، بخلافِ الإشارَةِ إلى مجرَّد حُدوثِها، فالتَّعبير بالقُرْب أخصُّ؛ لأنَّه إخبارٌ بإتيانِها وزيادَة.

سرُّ التَّعْبيرِ بِقَوْلِهِ: ﴿قَرِيبٌ﴾ دونَ (قَريبَة):

إيثارُ التَّذْكيرِ في وصْفِ السّاعَةِ إيماءٌ إلى شِدَّتِها وعَظَمَتِها

عبَّر النَّظْمُ القرآنيُّ بـ ﴿قَرِيبٌ﴾ في الإخبارِ عن السّاعة في قول الله تعالى: ﴿لَعَلَّ ٱلسَّاعَةَ قَرِيبٌ﴾ بصيغة المُذكَّر، والأصلُ أن يتطابقَ جُزْءا الجملةِ الاسميَّة تذكيرًا وتأنيثًا، وذلك لأنَّ تأنيثها غيرُ حقيقيٍّ، فالمَعنى: لعلَّ البعثَ قريبٌ، أو هو على حذف مضافٍ، والتَّقدير: لعلَّ مجيء السّاعة قريب[2].

أو لأنَّ العربَ إذا أرادوا به الظَّرف؛ جعلوهُ بغير هاءٍ، وكان لفظهُ عندَهُم واحدًا في الواحد والاثنين والجمع، مُذَكَّرًا كان ذلك أو مؤنَّثًا، فيقولون: هو قريبٌ، وهي قريبٌ، وهما قريب، وهم قريب، وهُنَّ قريب[3].

(1) أبو حيان، البحر المحيط: 9/ 330.
(2) الزجاج، معاني القرآن وإعرابه: 4/ 397، وابن أبي زمَنين، تفسير القرآن العزيز: 4/ 165، والقرطبي، الجامع لأحكام القرآن: 16/ 15.
(3) معمر بن المثنى، مجاز القرآن: 2/ 200.

وأمّا ما ذهب إليه جماعةٌ مِن أهل العلم من أنَّ (قريب) واردٌ على زنةِ (فعيل)، وهو ممّا يستوي فيه المُذَكَّر والمؤنَّث؛ ففيه نظرٌ؛ لأنَّ ذلك خاصٌّ بزنة (فعيل) الَّتي بمَعْنى مفعولٍ، أمّا (فعيل) بمعنى فاعلٍ؛ فلا يستوي فيه ذلك[1].

وفي إيثار التَّذكير إيماءٌ إلى أنَّها ذاتُ الشَّدائد، وأنَّ شدائدها ذكور الشَّدائد، فكانَ التَّذكير أنسبَ للدَّلالة على ما فيها مِنَ القوَّة والعظم[2].

بَلاغَةُ التَّذْييلِ بِقَوْلِهِ: ﴿وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّ ٱلسَّاعَةَ قَرِيبٌ﴾:

يَومُ القيامَةِ يَومُ الحِسابِ ووَزْنِ أعمالِ العِبادِ

لفظُ ﴿وَمَا يُدْرِيكَ﴾ جارٍ مجرى المَثل[3]، فَجملةُ: ﴿وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّ ٱلسَّاعَةَ قَرِيبٌ﴾ تذييلٌ جارٍ مجرى المَثل لاستقلالهِ بِنَفْسِه، وعدمِ افتِقاره إلى ما قبلَه في فَهْمِ تمامِ المُراد منهُ.

ومناسبةُ ذِكْر هذه الجملةِ بعدَ ذِكْر إنزال الكتاب بالحقِّ والميزان: أنَّ السّاعة يقع فيها الحسابُ ووضعُ المَوازين، فكأنَّه قيل: قَد أمركم اللّه سبحانَه بالعَدْل والعَمل بالشَّرع المُنَزَّل، فاعملوا بالكتابِ والعَدْلِ قبلَ أن يَفْجَأكُم يومُ الحساب ووزنُ الأعمالِ[4].

وَجهُ الاختِلافِ بَينَ هَذِهِ الآيَةِ وبَينَ قَولِهِ: ﴿وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّ ٱلسَّاعَةَ تَكُونُ قَرِيبًا ﴿٦٣﴾﴾:

مُراعاةُ تَناسُبِ الفَواصِلِ تَحْقيقٌ لِلانسِجامِ الصَّوتيِّ

قال اللّه سُبحانه هنا: ﴿وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّ ٱلسَّاعَةَ قَرِيبٌ﴾، وقال في موضعٍ آخرَ: ﴿وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّ ٱلسَّاعَةَ تَكُونُ قَرِيبًا ﴿٦٣﴾﴾ [الأحزاب: 63]، وذلك مراعاة للفواصل[5]، فإنَّ لفظَ ﴿قَرِيبٌ﴾ أنسبُ للآية قبلَه:

(1) حقي، روح البيان: 8/ 302، والقِنَّوجيّ، فتح البيان: 12/ 290 - 291.
(2) البقاعي، نظم الدرر: 17/ 281.
(3) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 25/ 68.
(4) الزمخشري، الكشاف: 4/ 217، وابن عجيبة، البحر المديد: 5/ 206.
(5) الكرماني، أسرار التكرار في القرآن، ص: 224.

﴿وَلَهُمۡ عَذَابٞ شَدِيدٞ﴾، والآية بعده: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُمَارُونَ فِي ٱلسَّاعَةِ لَفِي ضَلَٰلِۭ بَعِيدٖ﴾، ولفظ ﴿قَرِيبًا ٦٣﴾ [الأحزاب: 63] أنسبُ للآية قبله: ﴿وَلَن تَجِدَ لِسُنَّةِ ٱللَّهِ تَبۡدِيلٗا ٦٢﴾ [الأحزاب: 62]، والآية بعده: ﴿وَأَعَدَّ لَهُمۡ سَعِيرًا ٦٤﴾ [الأحزاب: 64].

عنوان الكتاب:
موسوعة التفسير البلاغي، المجلد الثالث والخمسون،
سورة الشُّورى من الآية 13 إلى سورة الزُّخرُف الآية 36
مجمع القرآن الكريم بالشارقة، الشارقة، دولة الإمارات العربية المتحدة
*
التنفيذ والنشر: منشورات القاسمي، الشارقة، دولة الإمارات العربية المتحدة
سنة الطبع: 1447هـ - 2026م
©حقوق الطبع والنشر محفوظة لمنشورات القاسمي
الطبعة الأولى: 2026م
*
الفهرسة الوصفية أثناء النشر:
مكتبة الشارقة العامة، هيئة الشارقة للكتاب، الشارقة، الإمارات العربية المتحدة

227.366
م ق. ت
التفسير البلاغي للقرآن: المجلد الثالث والخمسون، سورة الشُّورى من الآية 13 إلى سورة الزُّخرُف الآية 36
[إشراف مجمع القرآن الكريم، قسم الدراسات والبحوث ؛ المدير العلمي امحمد صافي المستغانمي].-
الشارقة، الإمارات العربية المتحدة : منشورات القاسمي، 2026.
مج. 53 ، 806 صفحة؛ 24x17 سم.
ردمك : 978-9948-644-66-8
يشتمل على ارجاعات ببليوجرافية.
مج. 53 : المجلد الثالث والخمسون، سورة الشُّورى من الآية 13 إلى سورة الزُّخرُف الآية 36.
1-القرآن - تفاسير نحوية 2- القرآن، بديع 3- القرآن، بلاغة 4- القرآن - سور وآيات 5- القرآن-
ألفاظ أ- العنوان ب - مجمع القرآن الكريم (الشارقة، الإمارات العربية المتحدة).
قسم الدراسات والبحوث

الترقيم الدولي : 978-9948-644-66-8
*
إذن طباعة رقم: MC-03-01-4811073 بتاريخ 2026/01/07م،
الهيئة الوطنية للإعلام، الإمارات العربية المتحدة
*
الفئة العمرية : E
"تم تصنيف وتحديد الفئة العمرية التي تلائم محتوى الكتب وفقاً لنظام التصنيف العمري
الصادر عن المجلس الوطني للإعلام"
*
الطباعة: AL Bony Printing Press - Sharjah, UAE
الإخراج الفني: عاصم محمد زكي "النجار"